

## الأمة في قرن

عماد العلايلي \*

مشروع الأمة في قرن (هو القرن العشرون الميلادي، والقرن الرابع عشر الهجري، وجزء من القرن الخامس عشر الهجري)، وضعته مجموعة من الباحثين العرب والمسلمين، لدراسة تجربة المسلمين من شتى نواحيها، وعلى مدى العالم الإسلامي، خلال ما يزيد عن القرن من الزمان. كان مستشار الحولية الدكتور طارق البشري، والإشراف العام للدكتورة نادية مصطفى، وسيف الدين عبد الفتاح (وهما أستاذان بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة). وشارك في كل جزء من الأجزاء مجموعة من الباحثين، أكثرهم من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة. لكن بينهم أساتذة من جامعات مصرية أخرى، أو من جامعات عربية وإسلامية. وفي التمهيد للمجلد أو الجزء الأول إيضاح لخطة العمل التي وضعت خلال ثلاثة أشهر أواخر العام 2000م، ثم جرى توزيع سائر الفصول على الباحثين، والتي تكاملت في النهاية في ستة أجزاء.

عنوان الكتاب الأول: الأمة في قرن: الماهية والمكانة والإمكانية. وقد قدم له بمشهديه طويلة الدكتور طه جابر العلواني بدراسة بعنوان: "الحظات ومالات الإصلاح في الأمة الإسلامية، نحو محاولة جديدة للإصلاح". والدكتور العلواني باحث معروف في مجال أصول الفقه في الأصل، لكنه منذ تولى إدارة المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا/الولايات المتحدة، في الثمانينات من القرن الماضي، أقبل على كتابة تصورات شاملة للنهوض والإصلاح الإسلامي، منطلقاً في البداية من رؤية "إسلامية المعرفة"، ثم تجاوز ذلك بعد أواسط التسعينات للرؤية الإسلامية العامة. وقد بدأ أطروحته هنا بدراسة موجزة لأوضاع العرب قبل ظهور الإسلام، ثم تلا ذلك تلخيص لظهور الدين والدولة والإمبراطورية في عالم الإسلام، وصولاً إلى حقبة الضعف والاستضعاف والسيطرة الاستعمارية، ونضالات المسلمين ضدها. ويعتبر الكاتب سقوط الخلافة العثمانية بداية حقبة جديدة هي عصر الدولة الوطنية أو القومية. ثم يتتبع تجاربها في البلدان العربية والإسلامية مع اهتمام خاص بالتجارب المتميزة مثل مصر وسورية والعراق والسعودية وإندونيسيا وماليزيا والسودان وإيران. ويرى في النهاية أن حركة الإصلاح الإسلامي لم تتجح للتأمر الاستعماري عاليها، ولسيطرة القوميين والعلمانيين على مقدرات الأمة. فالعقبتان الرئيسيتان أمام النهوض: السيطرة الغربية، وتخلف المسلمين.

بعد هذه المقدمة المشهدية، تأتي مقدمة أخرى للدكتورة نادية مصطفى، المشرفة على المشروع، فتذكر أن حولية قضايا العالم الإسلامي (أمتي في قرن) هي استكمال لمشروع "العلاقات الدولية في الإسلام" والذي صدر في اثني عشر مجلداً من قبل. وتعتبر أن

الكتاب الأول هذا يعالج التحديات والاستجابات التي فرضها القرن العشرون بنقاطه الأساسية: الحرب الأولى، والحرب الثانية، والحرب الباردة. فقد أعادت هذه الأحداث الغربية الهائلة تشكيل العالم الإسلامي.

وتتولى الدراسات بعد ذلك فيكتب السيد عمر دراسة "طويلة" بعنوان: حول مفهوم "الأمة" في قرن: نقد تراكمي مقارن. والإشكالية التي يطرحها المقال جديدة تحاول أن تبرز تأمل العالم الإسلامي في منظور شامل استنادا إلى "وحدة الأمة"، ولذلك يدرس الكاتب تصورات الأمة بين الدين والدنيا، وبين الدينية والدولتية لدى المفكرين المسلمين منذ القرن التاسع عشر (جمال الدين الأفغاني وحسين المرصفي)، وإلى تصورات القوميين والعلمانيين في النصف الثاني من القرن العشرين. والواقع أن الكاتب يطرح مفهوما خاصا للأمة بعد الانتهاء من استعراض آراء المفكرين العرب، وبعض المسلمين من خارج الوطن العربي، مثل المودودي والندوي - وهو ينتهي إلى أن الإسلام بقي دينا وثقافة مشتركة رغم التجزئة، بيد أن تجارب التوحيد باسم الإسلام لم تنجح، كما لم تنجح تجارب التوحيد باسم القومية.

ويدرس الكاتب عبد المجيد فرج فكرة مشكلة أخرى بعنوان: "الرؤية الكلية بين القدرات المحتملة والفاعلية الراهنة"، فينتهي بعد بيانات إحصائية كثيرة للقدرات والإمكانات، إلى أن التجزئة الاستعمارية حالت دون تبلور إمكانات الأمة في قدرات. والأمر نفسه يمكن قوله عن دراسة مصطفى دسوقي كتبه بعنوان: "الإمكانات الاقتصادية للعالم الإسلامي بين خصائص الواقع ومتطلبات الاقتصاد الإسلامي"؛ إذ تقع الدراسة المذكورة في مائة صفحة تغص بالإحصائيات، وتنتهي لتقديم منظور تعاوني تتلاءم فيه الإمكانات مع القدرات.

وتبقى دراستان في الكتاب الأول هذا تستحقان الاهتمام: سكان العالم الإسلامي لعبد السلام نوير، والقدرات والإمكانات العسكرية في العالم الإسلامي. أما الأولى فهي مفيدة في التعرف على مؤشرات ودلالات التطورات السكانية، لكن الثانية فيها مشكلة منهجية تتعلق بفائدة الإحصاء وتعداد الدبابات والطائرات في دول لا علاقات جغرافية أو سياسية فيما بينها مثل تركيا وإندونيسيا ومصر؛ بل إنها ظلت متعادلة لخمسين عاما إبان الحرب الباردة.

أما موضوع الكتاب الثاني فهو: خبرة العقل المسلم، خبرات وتطورات وحوارات. يكتب الدكتور مصطفى منجود عن اتجاهات الفكر السياسي الإسلامي في القرن العشرين، فيدرس الرؤى والنظريات السياسية حول الأمة والدولة. ويركز على ما ظن من أفكار سياسية إسلامية بعد منتصف القرن العشرين من خلال الحركات الإسلامية في الوطن العربي والعالم الإسلامي. ثم يقوم سعيد إسماعيل علي باستعراض الجهود التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي خلال القرن العشرين، دارسا عدة حالات. والأمر نفسه يقوم به عبد العزيز عثمان التويجري بالنسبة لتطور الخبرات الثقافية، مركزا على جهود

المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم والمؤسسات الأخرى. ويستعرض أبو يعرب المرزوقي الفلسفة العربية في مائة عام، ومحمد أحمد سراج: الفقه الإسلامي والتغيير القانوني في البلاد الإسلامية في القرن العشرين، وأحمد حسن الرشيدى: حقوق الإنسان في الإسلام؛ أفكار من واقع القرن العشرين -وأمني صالح: المرأة المسلمة بين قرنين، الإنجازات والتحديات- ومحمد عمارة: مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحدثة الغربية، وعماد الدين شاهين: من حوارات القرن، دراسة حالة مصر. والواقع أن هناك في هذا الجزء، إذا أغفلنا الطابع العام، عدة مقالات تقدم جديدا. أولى تلك المقالات عمل د. سراج عن الفقه الإسلامي والتغيير القانوني، من مجلة الأحكام العدلية العثمانية، وإلى صياغات السنهوري ورفاقه للقوانين المدنية واعتبار الفقه الإسلامي من مصادرها: ثم تطورات قوانين الأحوال الشخصية في عدة بلدان عربية. ولو قدم الباحث نماذج من بلدان إسلامية مثل إندونيسيا وباكستان، لكان البحث أكثر فائدة. ويستعرض د. الرشيدى إعلانات وبيانات حقوق الإنسان لدى الإسلاميين، ولدى المنظمات والهيئات الإسلامية. وأرى أن إيراد تلك البيانات التي أصدرتها المؤسسات مفيد؛ لكن الفائدة تكون أكبر وأوضح لو أرست الدلالات، ولو جددت المقارنة بين تلك البيانات والبيانات العالمية. ودراسة عماد الدين شاهين مفيدة أيضا رغم اقتصارها على مصر؛ فهو يدرس ما يعتبره "حوارات القرن" بمصر، أي أهم الموضوعات التي كانت موضع سجال من وجهة نظره؛ وهي: حوار التقليد والتجديد حول زواج الشريكين من غريبات، وحول الزني، وحول التجديد في الأدب، وحول التعليم المختلط، وحول تحرير المرأة)، ثم حوار التعليم والثقافة قضية التعليم، ومعرفة إصلاح الأزهر ومجانبة التعليم، واللغة العربية، ومفاهيم الثقافة، والإسلام وأصول الحكم، والشعر الجاهلي، والديمقراطية والإسلام). ثم حوار النظام السياسي والانتماء (أزمة النظام السياسي والإصلاح، والدولة والقومية، والحرية والاستبداد، والانتماء المصري أو العربي أو الإسلامي). ثم الحوارات حول الدين الإسلامي (الدين والأخلاق، والتقريب بين المذاهب، وعلاقة الدين بالدولة).

ويحمل الكتاب الثالث أو الجزء الثالث عنوان: الإسلام في عالم المسلمين، نماذج وحالات. والواضح أن هذا الجزء موضوعه القضايا السياسية في بلدان محددة، أو المسارات السياسية في بلدان ونواح خلال القرن العشرين. يكتب فيه وجيه كوثراني عن الصراع الإنجليزي - الفرنسي عن مصير المشرق العربي (1912 - 1915). ويستند كوثراني في دراسته إلى الوثائق الفرنسية وتقارير القناصل الفرنسيين بالمشرق العربي في تلك الفترة، مع العودة أيضا إلى وثائق المؤتمر العربي بباريس (1913). وتعتمد حورية توفيق مجاهد إلى دراسة انتشار الإسلام في إفريقيا في القرن العشرين، وهي دراسة مفيدة، وبخاصة أنها تقارن مسار الإسلام إلى القارة بمحاولات التبشير والنتضير والتنافس بينهما، مع رسم صورة شبه نهائية لما آلت إليه الأمور أواخر القرن. ويدرس د. جلال معوض أزمة الهوية في تركيا، وظهور الاتجاهات الإسلامية وتطوراتها الأخيرة. وتهتم باكينام الشرقاوي بالتغيير السياسي في إيران، سواء على مستوى القضايا أو الآليات

أو النضالات، وكيف يدور التنافس والصراع تحت عناوين إسلامية ثم محايدة. ويقرأ الدكتور محيي الدين قاسم التطورات في إندونيسيا قراءة "متشائمة" ما بين الاستقلال في الخمسينات وإلى مخاطر التفكيك على مشارف القرن العشرين. وتدرس نادية مصطفى موضوعا شائكا بعنوان: الإسلام والسياسة الخارجية المصرية؛ فلا تنتهي فيه إلى نتائج محددة. ويفرد أمجد جبريل أخيرا موضوعا مستقلا للقدس والصراع عليها على عدة مستويات.

وتتفاوت دراسات الكتاب الرابع أهمية ومنهجية. عنوان الجزء: أنماط الفواعل والتفاعلات في الداخل الإسلامي. تدرس علا- أبو زيد: الممارسات السياسية للحركات الإسلامية، من مقاومة الاستعمار، إلى التعامل مع النظم السياسية الحديثة. والواقع أنه لا علاقة بين الحركات التي قاومت الاستعمار، وتلك التي ظهرت وتعمقت بعد الحرب العالمية الثانية. فالأولى حركات مقاومة وإصلاح أو تهدف للتحريم وإقامة الدولة، والحركات الحالية حركات إحياء هدفها أسلمة الدولة القائمة. ويعود حسنين توفيق إلى الموضوع نفسه في مقالته بعنوان الإسلام والسياسة في الوطن العربي خلال القرن العشرين. إذ إنه يركز على الحركات الإسلامية الإحيائية ورؤاها للدولة وعلاقتها الصراعية معها. ويهتم هشام جعفر بالملاحم العامة للعلم الأهلبي الإسلامي (الجمعيات الخيرية). وتدرس د. ماجدة صالح أوضاع الأزهر في القرن العشرين، من إصلاحات محمد عبده وإلى إصلاحات جمال عبد الناصر، وما تخلل ذلك من تغييرات في الفكر والبنية والمصائر، والدراسة مفيدة، لكنها لا تعالج الوضع الراهن ومشكلاته. وهناك مقالة عن الزيتونة، وأخرى عن الحوزة بإيران. بيد أن ما يستحق الذكر هنا مقالة داهي الفضلي عن "تحولات نظام الأوقاف، مائة عام من محاولات الهدم وتجارب الإصلاح". وهناك أخيرا دراسة طريفة لعبد الله محمد أبو عزة عن دور العسكريين في العالم الإسلامي في القرن العشرين، تركز عن الوطن العربي، رغم أن الظاهرة إسلامية، تشمل أقطارا كبرى في آسيا وإفريقيا.

وينشغل الكتاب الخامس بالأقوام والأعراق والملل في عالم متداخل. يكتب د. جمال الدين عطية دراسة "جديدة" بعنوان: نحو فقه جديد للأقليات، يجمع فيه بين تجارب الإسلاميين، والعلوم الأنثروبولوجية والسياسية المعاصرة. ثم تأتي دراسات لحالات: جنوب السودان، ونيجيريا، والبربر، والأكراد، والخلاف السني- الشيعي، والمسلمون في شمال القوقاز، ومسلمو البلقان، والمسلمون في الهند، والمسلمون في ألمانيا. والواقع أن التركيز على التقريب بين المذاهب في الخلاف السني- الشيعي (محمد علي أدرشب) مهتم من الناحية التاريخية، لكنه يتجاهل الموضوع الأصلي الذي هو سياسي الطابع، بسبب الحرب العراقية- الإيرانية، وقد انتهى الأمر الآن، والمذاهب الفقهية تتهاوى وتكاد تنتهي جميعا، والخلافات الفقهية بينها غير أساسية. أما الدراسات الأخرى فتتجاهل إلى حد ما التحديات التي طرحتها الدولة القومية، وما تغير الأمر في جنوب القوقاز كثيرا حتى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. وأحسب أن أوضاع مسلمي البلقان والهند، حقيقة فصلا

بالاهتمام، والبحتان الواردان جيدان بهذا الصدد.

ويحمل الكتاب السادس والأخير عنواناً بعنواناً: "تداعي التحديات والاستجابات والانتفاض نحو المستقبل"، يكتب سيف الدين عبد الفتاح عن التحديات السياسية الحضارية في العالم الإسلامي. وتتضمن الدراسة الطويلة رؤى وتصورات للمشكلات، وتفتح آفاقاً للحصول من ضمن الهوية الذاتية والتجدد الحضاري الداخلي، المتساق مع إصلاح سياسي. وتكتب نادية مصطفى عن التحديات السياسية الخارجية للعالم الإسلامي؛ بروز الأبعاد الحضارية والثقافية. فتعرض لأطروحة صدام الحضارات، وردود فعل المسلمين عليها، والصراع على الإسلام في السياسات العالمية، والأبعاد المستجدة بعد هجمات 11 سبتمبر 2001. ويقرأ عبد الوهاب المسيري تاريخ الصهيونية في مائة عام. وكنت قد قرأت له مقالتيين مشابھتين عن الموضوع نفسه، لكن قراءته خاصة ومفيدة إذ إنه يعتبر الصهيونية ظاهرة غريبة. ويدرس بشير سعيد أبو القرايا الظاهرة الانتفاضية في فلسطين، بينما يكتب د. حازم حسن عن "الإسلام وحضارة عصر المعلومات"، ويختتم د. سيف الدين عبد الفتاح بدراسة مستقبلية، وأخرى بعنوان: خاتمة قرن.. فاتحة قرن.

الفكرة مفيدة، من حيث إنها تصنع أفقاً، في وقت تفرض فيه (الحرب على الإرهاب) ظلها وممارساتها على العرب والمسلمين. بيد أن التركيز انصب على الوطن العربي، وجاءت معلومات بعض المقالات سريعة أو غير ممنهجة. وإذا كانت دول منظمة المؤتمر الإسلامي سبعة وخمسين، فإن المذكور منها لا يزيد على العشرين. ويستطيع المشرفون على المشروع الاحتجاج بأنهم إنما يكتبون عن الأمة وليس عن الدول، أو أن الكتاب ليس موسوعة بل حولية. لكن واقع كتابته وإصداره في سنتين فقط، يشكل عذراً ومسؤولية في الوقت نفسه. لكن الطريف، أن أكثر الباحثين في الحولية ذات الستة أجزاء يطمحون إلى تجاوز الهوية الثقافية أو الانتماء الثقافي إلى التبلور السياسي أو الاقتصادي على الأحرى، ومع ذلك فلا دراسة للمؤسسات والمنظمات الإسلامية الشاملة مثل منظمة المؤتمر الإسلامي، والبنك الإسلامي للتنمية، والجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الإفريقية وموقع المسلمين فيها، وعلاقات المسلمين بالمنظمات الدولية. ويزداد استغراب المتتبع، إذا عرف أن أكثر الباحثين هم من أساتذة العلوم السياسية، الذين تهمهم دراسات النظم.

على أن هناك جهداً مبذولاً لا يمكن إنكاره، ولا بد من تشجيعه والتشجيع عليه. ولا يحول دون ذلك الاختلاف حول المنظور، ولا إهمال بعض الجوانب لحساب جوانب أخرى.

\*\*\*\*\*

(\* "الأمة في قرن" عدد خاص من "أمّتي في العالم" حولية قضايا العالم الإسلامي 1420 - 1423 هـ / 2000 - 2001م، في ستة أجزاء. إصدار مركز الحضارة للدراسات السياسية. مكتبة الشروق العالمية، ط. 2002/1423 هـ.

